مدينة جدة من خلال كتاب معجم البلدان
لمؤلفه ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)

د / هدى بنت جبير السفياني
أستاذ الحضارة والنظم المشارك – جامعة أم القرى

ملخص البحث:

إن دراسة المدن وما تضمنته من جوانب تاريخية، وجغرافية، وعمرانية، واقتصادية، وطبقات للمجتمع مع التطرق إلى مراكز العلم، وأنواع العلوم وأبرز العلماء أمر مهم بل في غاية الأهمية.

ومدينة جدة مدينة عريقة قديمة، موغلة في القدم معروفة مشهورة، تطرق لها كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة وغيرهم، وكان ممن ذكرها المؤرخ الأديب الجغرافي ياقوت بن عبد الله الحموي صاحب أهم كتاب في تاريخ البلدان وجغرافيتها: "معجم البلدان" ولأهمية هذا الكتاب وشهرة مؤلفه ودقَّته في سرد معلوماته وقع الاختيار على كتابه للحديث عن هذه المدينة وذكر ما أورده ياقوت عنها مع المقارنة بما ذكره في المصادر الأخرى المهتمة بتاريخ المدن وجغرافيتها ومع كتب الرحلات.

الكلمات الدالة:

ياقوت – جدة – معجم – مدينة – الحموي – البلدان.

Research summary:

The study of cities, encompassing their historical, geographical, architectural, and economic aspects, as well as social classes, along with a focus on centers of knowledge, types of sciences, and prominent scholars, is important, indeed of utmost importance.

And the city of Jeddah is an ancient, old city, deeply rooted in history, well-known and famous. Many historians, geographers, travelers, and others have touched upon it. Among those who mentioned it was the historian, literary figure, and geographer Yaqut al-Hamawi, the author of the most important book on the history and geography of cities: "Mu'jam al-Buldan." Due to the importance of this book, the fame of its author, and the precision in his narration of information, his book was chosen to discuss this city and to mention what Yaqut wrote about it, comparing it with what was mentioned in other sources interested in the history and geography of cities and travel books.

Keywords: YaQut - Jeddah - Dictionary - City - Al-Hamawi - The Countries.

مقدمة:

في هذا البحث نتحدَّث عن مدينة ذات أهميَّة جغرافية وتاريخية واقتصادية ودينية تميَّزت بها عن باقي المدن، بل إنها كانت وما زالت ميناءً ومرفأً عالمياً يستقبل كلَّ عام وفود حجاج بيت الله الحرام على أرضها متجهين لأداء مناسكهم، فضلاً عن أهميتها الاقتصادية. إذ أنها تُعَدُّ مركزاً وميناءً تجارياً عالمياً للصادر والوارد من أصقاع المعمورة، وحلقة وصل ما بين الشرق والغرب. تلكم المدينة هي مدينة جدة التي ضربت في تاريخها قروناً مبكرة أرجعها البعض إلى بداية هبوط آدم وحواء عليهما السلام من السماء.

ولِمَا تميَّزت به هذه المدينة من مميزات فقد آثرنا الحديث عنها من خلال مؤرخ وجغرافي موثوق مشهور وهو ياقوت بن عبد الله الحموي، الذي أَلَّف في تاريخ المدن وجغرافيتها موسوعته الضخمة "معجم البلدان"، وقد تناولنا في الحديث عن هذه المدينة التعريف بالكتاب ومؤلفه، ثم ذكره لمدينة جدة من خلال التسمية والنشأة للمدينة وثم تاريخها في العصر الإسلامي مع المقارنة بالمصادر التي سبقت عصر المؤلف، وقد تحدَّثت عن مدينة جدة بين ثناياها.

وقد جاء عنوان البحث: **مدينة جدة من خلال معجم البلدان لمؤلفه ياقوت بن عبدالله الحموي.**

ياقوت وكتابه معجم البلدان:

يُعَدُّ ياقوت الحموي واحداً من أبرز الأسماء التي تفتخر بها الحضارة الإسلامية، فبالرغم من أصله الرومي، إلَّا أنَّه نشأ وترعرع في أحضان المسلمين، وتلقَّى تعليمه في بيئة إسلامية عربية خالصة، حتى بلغ شأواً عظيماً في العلم وسعة الاطلاع(١).

يقول عنه الإمام الذهبي رحمه الله:(الأديب الأوحد شهاب الدين الرومي مولى عسكر الحموي، السفَّار، النحوي، الإخباري، المؤرِّخ(٢)).

ولياقوت قصَّة عجيبة في التنقُّل والترحال الذي ذاق مرارته منذ الصغر، إذ أُسر وهو ما يزال في الخامسة من عمره، ثم نُقل من مسقط رأسه ببلاد الروم التي ولد فيها سنة (٥٧٤ أو ٥٧٥هـ/ ١١٧٨م) إلى بغداد فابتاعه تاجر يُدعى عسكر بن إبراهيم بن أبي نصر الحموي، فنُسب إليه، ونشأ مسلماً وغلب عليه لقب مولاه الحموي(٣)، يقول ابن خلكان: "عبدالله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس والمولد، الحموي المولى، البغدادي الدار، الملقب شهاب الدين"

وقد أراد مولاه أن يكون له معيناً على تجارته، إذ أنَّه أُمِّي فأدخله الكُتَّاب وحرص على تعليمه، إلَّا أنَّ ياقوت انصرف إلى اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم، إذ أبدى نهمه للعلم وحُبَّه للاطلاع عن كل ما هو جديد مستفيداً في ذلك كلِّه من أسفاره الكثيرة التي شملت: جزيرة كيش(٤) والتي زارها عدَّة مرات، ومصر،

(١) القفطي: جمال الدين علي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، ، دار الفكر ، القاهرة ،١٩٨٦م، ٨٠/٤-٩٩، ابن خلكان: أحمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ، مكتبة النهضة، القاهرة ، ١٩٤٩م، ١٧٨-١٨٩، الذهبي: شمس الدين : سير أعلام النبلاء، ط:٣، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٩م، ٢٢/ ٣١٣، ابن العماد: عبد الحي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط:٢، ، دار ابن كثير ،دمشق،١٩٨٦م، ١٢٢/٥.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣١٣/٢٢.

(٣) القفطي: إنباه الرواة، ٨٢/٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣١٣/٢٢.

(٤) جزيرة كيش: جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس لأن أهلها فُرس، وهي اليوم ضمن دولت إيران. ياقوت: ياقوت بن عبد الله، (ت: ٦٢٦هـ/): معجم البلدان، ط: ٢، ، دار صادر،بيروت، ١٩٩٥م، ٥٦٥/٤، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ط:٢، مؤسسة الرسالة،بيروت ١٩٨٥م، ص:٢٩٧.

وأذربيجان[٥]، ونيسابور، وأربل[٦]، وخراسان، ومرو، وخوارزم، ودمشق، وحلب التي كانت خاتمة أسفاره حيث حط بها رحاله واستقر بها حتى وفاته سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[٧].

كان لرحلة ياقوت الواسعة، وأسفاره الكثيرة المتعددة أكبر الأثر في نمو ثقافته، وتنوع معلوماته العلمية والجغرافية والتاريخية إلى جانب مساعدته على الاطلاع على ثقافات المدن الإسلامية المختلفة وحضارتها وآثارها. وملاقاة العلماء والأدباء والأخذ عنهم. وتذكر المصادر أن ياقوت أعتق من قبل سيده عسكر سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) بعد جفوة حصلت بينهما، فاشتغل بالنسخ بالأجر، لحسن خطِّه، وحصَّل بالمطالعة فوائد جمَّة، فكان من خيرة الورَّاقين المعتبرين. كما كان كثير النَّسخ، فذكر أنَّه كتب بيده ثلاثمائة مجلد في سبع سنين. ولكنه ما لبث أن تصالح مع سيده عسكر الذي أوكل إليه مهمَّة السفر للتجارة مرة أخرى، فاتجه إلى جزيرة كيش، ولما عاد منها كان مولاه قد مات، سنة (٦٠٦هـ/١٢١٠م)، فدفع ما تحصَّل عليه من مال في سفرته إلى زوجة سيده وأولاده، وأخذ منه وجعل يتاجر فيه في بيع الكتب مع استمراره في مهنة النسخ[٨].

- شيوخه ومؤلفاته:

بالرغم من اتساع رحلة ياقوت الحموي، وكثرة من قابلهم من العلماء في هذه الرحلة، إلَّا أنَّه لم يتتلمذ على الكثير منهم، فهو مثلما ذكر أحد الباحثين تتلمذ على الكتب أكثر مما تتلمذ على الشيوخ[٩]، فبحكم كثرة ترحاله وتنقله بين بلدان العالم الإسلامي للتجارة، لم يتح له الوقت الجلوس إلى العلماء والأخذ عنهم، إضافة إلى اشتغاله بنسخ

(٥) أذربيجان: إقليم واسع ببلاد المشرق، وقصبتها مدينة تبريز، وهي اليوم جمهورية من ضمن الدول المستقلة عن تركيا وتقع في مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا. ياقوت: معجم البلدان، ١٥٥/١، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص:١٩٣.

(٦) أربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة واسعة تعد من أعمال الموصل بالعراق، وهي اليوم مدينة عراقية وعاصمة إقليم كردستان، ياقوت: معجم البلدان، ١٦٦/١، ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص:١٢١.

(٧) القفطي: إنباه الرواة، ٨٢/٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٧٨/٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/ ٣١٣-٣١٤.

(٨) القفطي: إنباه الرواة، ٨٧/٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٧٨/٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣١٤/٢٢، ياقوت: معجم الأدباء، ٢٨٨٤/٧.

(٩) يوسف الحميدي: ياقوت الحموي مؤرخًا، ط: ١، منشورات ضفاف،بيروت ٢٠١٤، ٢١-٣٠.

الكتب وبيعها، فلقي فيها مبتغاه إذ أتاح له الاطلاع على أمهات الكتب وقراءتها تثقيف نفسه بنفسه دون التتلمذ على الشيوخ والعلماء(١٠).

و اختلف الباحثون عن شيوخ ياقوت، فمنهم من نفى أن يكون له شيوخ أخذ عنهم، بينما ذكر كراتشكوفسكي أنَّ لياقوت شيخين اثنين بقوله: "ويذكر لنا يا قوت من بين أساتذته اللغويين المشهورين العكبري(١١)، وابن يعيش(١٢)"(١٣). بينما ذكر آخرون ما بين ثمانية عشر إلى تسعة شيوخ له أخذ عنهم أو قابلهم في أسفاره أو أنَّه أورد أسمائهم في مؤلفاته ونسب بعض معلوماته لهم(١٤) منهم:

– أبوالفرج عبد المنعم بن عمر الجياني الأندلسي (ت: ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م)(١٥)، أبو محمد عبدالعزيز ابن المبارك المعروف بابن الأخضر (ت:٦١١هـ/١٢١٤م)(١٦)، أبو بكر بن المبارك ابن الدهان النحوي (ت:٦١٢هـ/١٢١٥م)(١٧)، أبو البقاء يعيش بن علي الأندلسي الحلبي، (ت:٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)(١٨) وغيرهم.

وقد عاش يا قوت ما عاش يكتب ويؤلف، وكان له همة عالية في تحصيل المعارف،

وقد تنوعت تواليفه وشملت عدة علوم كان أبرزها الجغرافيا والأدب حيث ألف فيهما معجمين أصبحا مرجعاً للباحثين والمهتمين بهذين العلمين(١٩). ومن أهم مؤلفاته:

(١٠) القفطي: إنباه الرواة،٨٧/٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان،١٧٨/٥، ياقوت: معجم الأدباء، ٢٨٨٤/٧.
(١١) العكبري: عبد الله بن الحسين العكبري النحوي اللغوي، (ت:٦١٦هـ/ ١٢٢٠هـ). ياقوت: معجم الأدباء، ١٥١٦/٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان،١٠١/٣.
(١٢) ابن يعيش: يعيش بن علي بن يعيش الأندلسي الأصل، الحلبي المولد، (ت: ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٤٥/٣، السيوطي: جلال الدين (ت:٩١١هـ/١٥٠٥م): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط:١، مطبعة علي الحلبي،القاهرة، ١٩٦٥م، ٣٥٢/٢.
(١٣) اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ط:٢، دار الغرب،بيروت، ١٩٨٧م، ص:٣٦٤.
(١٤) الحميدي: ياقوت الحموي مؤرخاً، ص:٣٣.
(١٥) ياقوت: معجم البلدان، ١٨٢/٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٧٦/٢١
(١٦) ياقوت: معجم البلدان، ١٩٢/٢، ابن العماد: شذرات الذهب، ٤٦/٥.
(١٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٤٤/٢٣.
(١٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء،٤٥/٣، السيوطي: بغية الوعاة، ٣٥٢/٢.
(١٩) القفطي: إنباه الرواة،٤/ ٨٨-٨٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٧٨/٥، ابن العماد: شذرات الذهب، ١٢٢/٥.

معجم البلدان: الذي يعدُّ من أشهر كتب ياقوت وأعظمها، فهو موسوعة جغرافية استوفى فيها مؤلفها رقعة شاسعة يقول عنه المنذري: (جمع كتابًا كبيرًا في البلدان أحسن فيه)[٢٠] والمطلع على الكتاب يدرك أن ياقوت لم يقتصر على استقصاء المعلومات الجغرافية فقط، بل إنه أورد إلى جانبها معلومات تاريخية ولغوية وأدبية مفيدة، مستشهدًا قبل ذلك كله بآيات من القرآن الكريم وأحاديث من السنة النبوية[٢١].

وقد جاء معجم البلدان في مقدمة شملت خمسة أبواب كانت بمثابة مدخل للمعجم تناول فيها: صورة الأرض، وتقسيم الأقاليم، ومنازل البروج والبلدان الواقعة تحت تأثيرها، وذكر في الباب الثالث المصطلحات الواردة في المصنفات الجغرافية كالبريد والميل والفرسخ ونحوها، وأيضاً النواحي كالكورة والمخلاف والرستاق وغيره، ثم يوضح المصطلحات الجغرافية الفلكية، والمصطلحات الخاصة بالخراج. أمام الباب الرابع فذكر فيه تصنيفاً قصيراً للبلاد التي فتحها المسلمون وخراجها. وفي الباب الخامس كتب عن أخبار البلاد وسكان النواحي. ثم بدأ معجمه بذكر أسماء المواضع بحسب الترتيب الأبجدي وجعله في ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف الهجاء[٢٢].

أما بقية مصنفات ياقوت فمنها: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، واشتهر بـــ "معجم الأدباء"، والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً، والمقتضب من كتاب جمهرة النسب، والمبدأ والمآل في التاريخ، وكتاب الدول، وأخبار المتنبي، ومعجم الشعراء وغيرها[٢٣].

- مصادر ياقوت في حديثه عن مدينة جدة:

اعتمد ياقوت في حديثه عن مدينة جدة على عدة مصادر ذكرها بأسمائها - أو أسماء مؤلفيها منها:

كتاب أبو القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) له كتاب في اللغة نقل عنه ياقوت في حديثه عن اسم جدة، وأبو بكر الحازمي (ت٥٥٨٤هـ/١١٨٧م) وكتابه: "ما

(٢٠) ياقوت: معجم البلدان، ١، مقدمة المؤلف،٣٠.
(٢١) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٢٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٢٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٨٠/٥.

ائتلف واختلف من أسمائها"، ونقل عن الأصمعي (ت٢١٦هـ/٨٣١ م)[٢٤]، كما نقل عن كل من أبي الوليد الأزرقي (ت٢٥٠ه/٨٦٥م) وكتابه "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ومحمد بن إسحاق الفاكهي (ت بعد ٢٧٢ه/ ٨٨٥م)، وكتابه" أخبار مكة أيضاً"[٢٥].

ونقل أيضاً عن عبدالملك بن هشام (ت٢١٣ه/٨٢٨م) صاحب كتاب السيرة المشهورة، وكتابه الأصنام[٢٦].

كما نقل عن الإصطخري (ت٣٤٦ه/٩٥٧م)، والمقدسي (ت٣٨٠ه/٩٩٠م)، صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم[٢٧].

- مدينة جدة من خلال كتاب معجم البلدان:

وكما هو معلوم عن منهج ياقوت في معجمه، إذ يأتي بذكر الموضع على حدة حسب ترتيب حروف الهجاء، ويورد كل ما يخص هذا الموضع من موقعه، وتاريخه، ومناخه، ومن سكنه، وأهميته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية بذكر أبرز علمائه وما إلى ذلك[٢٨]. وقد ورد ذكر مدينة جدة لدى ياقوت في أحد عشر موضعاً مرة كان ذكرها مستقلة حسب ترتيب حروف الهجاء، فذكر كل ما يخص المدينة، وعشر مرات أتي ذكرها عرضاً مع بقية المواقع والأقاليم الأخرى[٢٩].

ويمكننا هنا تقسيم ما جاء من معلومات عن مدينة جُدَّة على هذا النحو:

أولاً: الاسم والنشأة:

ذكر ياقوت في مطلع حديثه عن مدينة جدة قوله: "جُدَّة بالضم، والتشديد، والجدّة في الأصل الطريق، والجدّة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف سائر لونه.. قال أبو المنذر: وبجُدَّة ولد جدّه بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة

(٢٤) ياقوت: معجم البلدان، ٢ /١٣٣.
(٢٥) ياقوت: معجم البلدان،٢٢٢/٣
(٢٦) ياقوت: معجم البلدان، ٥/ ٤٣٨
(٢٧) ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١٣٢.
(٢٨) ياقوت: معجم البلدان، ٣٠/١.
(٢٩) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢، ١٣٨/٢، ٢٢١/٣، ٣٥١، ١٢/٤، ٣٨٧، ٤٦٤، ١٨٨/٥، ٣٦٧، ٤٣٨.

فسمي جدة باسم الموضع"[٣٠]. وهذا النص يتضمن عدة أوجه فيما يخص اللفظ وأصل التسمية ونشأة المدينة.

أما ما يخص لفظ المدينة فياقوت صرَّح بأنها تنطق بالضم قال: "جُدَّة بالضم والتشديد[٣١]، وهو ما ذكره البكري في كتابه معجم ما استعجم بقوله: "جُدَّة بضم أولها، ساحل مكة، معروفة"[٣٢] ووافقه عليه ابن بطوطة إذ يقول: "جُدَّة بالجيم المضمومة"[٣٣]. أمَّا ما يخص سبب التسمية فياقوت قال إن نسبة لفظ المدينة بالضم إلى: "الجدّة في الأصل الطريق، والجدُّة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف سائر لونه"، أيضاً تنطق بالضم نسبة إلى أول من سكنها وهو جُدَّة بن حزم بن زيان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[٣٤]، وبينما ذكر البكري أن سبب التسمية بالضم: "سُميت بذلك لأنها حاضرة البحر، والجدُّة من البحر والنهر، ما وليَ البر؛ وأصل الجدة الطريق الممتدة"[٣٥]. وذكر أيضًا أن بجدة ولد جدة بن حرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وبها سُمي"[٣٦]. ويتوافق أيضاً بما قاله المقدسي: "جدَّة مدينة على البحر منه اشتق اسمها"[٣٧].

وتعود نشأة مدينة جُدَّة إلى عصر قديم أرجعه ياقوت إلى عصر الطوفان بقوله: "إن الأصنام: ود، وسواع، ويغوث، أخذها الطوفان حتى قذفها إلى أرض جدة ثم نضب الماء وبقيت على شط جدة"[٣٨]. وذكر في موضع آخر أن الأصنام الخمس التي كانت لقوم نوح عليه السلام، وأخذها عمرو بن لحي من ساحل جُدَّة"[٣٩]. بل إنَّ المصادر الأخرى ترجع تاريخ المدينة إلى ما قبل ذلك حيث ذكر عدد من الرحالة والبلدانيين أنَّ اسم المدينة ينطق

(٣٠) المصدر نفسه، ١٣٣/٢.
(٣١) نفسه.
(٣٢) البكري: أبوعبيد (ت:٤٨٧هـ/): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت،١٤٠٣هـ، ١٧/١.
(٣٣) ابن بطوطة: محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المغرب،الرباط، ١٤١٧هـ، ١/ ١٨٦.
(٣٤) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢.
(٣٥) البكري: معجم ما استعجم، ٣٧١/٢.
(٣٦) نفس المصدر، ١٧/١.
(٣٧) المقدسي: أبو عبد الله محمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط:٢، دار صادر، بيروت،١٩٠٩م، ٧٩.
(٣٨) ياقوت: معجم البلدان، ٣٦٧/٥.
(٣٩) نفس المصدر، ٤٣٨/٥.

بالفتح، "جَدَّة" نسبة إلى أُمِّ البشر حواء عليها السلام والتي نزلت بجدة بعد هبوطها من الجنة فسُميت المدينة باسمها. وهذا ما ذكره كل من الهمداني في صفة جزيرة العرب بقوله: "أقبلت من جدة حواء.."(٤٠). وما قاله أيضاً ابن جبير: "بهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم. وبها موضع قبة مشيَّدة عتيقة يذكر أنها كانت منزل حواء أم البشر عند توجهها إلى مكة"(٤١).

بيد أنَّ ياقوت أورد أن اشتقاق اسم المدينة إلى أول من سكنها ونشأ بها وهو: "جُدَّة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة"(٤٢). أي أن نشأة المدينة تعود إلى عصر هذه القبيلة "قضاعة" إذ يكمل ياقوت بقوله: "ولما تفرقت الأمم عند تبلبل الألسن صار لعمرو بن معد بن عدنان، وهو قضاعة، لمساكنهم ومراعي أغنامهم جدة من شاطئ البحر وما دونها إلى منتهى ذات عرق إلى حيز البحر من السهل إلى الجبل، فنزلوا وانتشروا فيها وكثروا بها"(٤٣).

وإذا بحثنا في مصادر التاريخ نجد أن قبيلة قضاعة كانت قبل الإسلام بثمانية قرون تقريباً. إذ أن قضاعة هو الابن الثاني لمعد بن عدنان، ومعد هو الجد التاسع عشر للرسول صلى الله عليه وسلم(٤٤)، يقول أحد الباحثين: "فإذا حسبنا سني كل جيل قصصاً فإننا نخرج من هذا الحساب التقريبي بأن جدة بنيت قبل الإسلام مرة بنحو ثمانية قرون"(٤٥). ثم جاءت قبيلة خزاعة لحكم مكة المكرمة واستمرت في ذلك خمسة قرون(٤٦)، ولا بد أنها كان لها سيادة أو إشراف على مدينة جدة إذ يذكر ياقوت أن عمرو بن لحي زعيم القبيلة قد اتجه إلى مدينة جُدَّة بنفسه وبحث عن الأصنام التي كانت من عهد نوح عليه السلام فاستخرجها من شاطئ جدة وأتى بها إلى مكة(٤٧).

(٤٠) الهمداني: أحمد بن يعقوب (ت: ٣٣٤هـ): صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل ،ليدن، ١٨٤م، ٢٢٢.
(٤١) ابن جبير: محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ٦٢.
(٤٢) ياقوت: معجم البلدان، ٢١/ ١٣٣.
(٤٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٤٤) ابن هشام: عبد الملك بن هشام: (ت:٢١٣هـ): السيرة النبوية، ط:٢، مطبعة مصطفى البابي، مصر،١٣٨٩هـ، ١/١-١٠.
(٤٥) الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط:٢،مطابع الروضة ،جدة ، ١٩٨٠ م، ٣٢/١.
(٤٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/١٢.
(٤٧) يا قوت: معجم البلدان، ٤٣٨/٥.

وتشير المصادر الأخرى إلى أن الفرس قد طالت سيادتهم مدينة جدة مثلما ذكر المقدسي ذلك بقوله: "قد غلب عليها الفرس لهم بها قصور عجيبة"(٤٨). وهو ما أشار إليه ابن جبير بقوله: "يذكر أنها كانت من مدن الفرس"(٤٩)، وما ذكره ابن بطوط أيضاً: "يقال إنها من عمارة الفرس"(٥٠).

ثانيا: الموقع والمناخ:

تقع مدينة جدة مثلما ذكر يا قوت: "على ساحل بحر اليمن"(٥١)، وهو ما أكده كل من اليعقوبي بقوله: "جدة وهي ساحل البحر"(٥٢)، وما أورده المقدسي أيضًا إذ قال: "جدة مدينة على البحر"(٥٣)، في حين ذكر ابن حوقل قوله: "جدة فرضة لأهل مكة على مرحلتين منها على شط البحر"(٥٤)، وهو ما أقره ابن جبير إذ ذكر أنها: "قرية على ساحل البحر"(٥٥)، ووافقه ابن بطوطة بقوله: "بلدة قديمة على ساحل البحر"(٥٦).

أما بالنسبة للبحر الذي تقع على ساحله مدينة جدة فهو البحر الأحمر والذي كان يسمى ببحر الحجاز(٥٧) بالنسبة للأماكن الحجازية التي يمر فيها، إذ من المتعارف لدى الجغرافيين أن هذا البحر يسمى باسم في كل موقع للمكان الذي يمر به وهو ما أكده ياقوت بقوله: "ويسمى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع"(٥٨). فيقال له بحر القلزم عند مدينة القلزم(٥٩)، وبحر أيلة عند مدينة أيلة(٦٠)، وبحر اليمن عند بلاد اليمن، وبحر الحجاز

(٤٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.
(٤٩) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص:٦٣.
(٥٠) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ١٨٦/١.
(٥١) ياقوت: حجم البلدان، ١٣٣/٢.
(٥٢) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق (ت بعد ٢٩٢هـ): كتاب البلدان، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢٢هـ، ص:١٥٤.
(٥٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.
(٥٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ٣١/١.
(٥٥) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص:٦٢.
(٥٦) ابن بطولة: رحلة ابن بطوطة، ١٨٦/١.
(٥٧) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢، ٣٥١/٣.
(٥٨) ياقوت: معجم البلدان، ٣٤٤/١.
(٥٩) القلزم: مدينة قديمة وهي ساحلاً من سواحل الديار المصرية على خليج السويس، المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٣٩٣/١، ياقوت: معجم البلدان، ٣٨٠/٤.
(٦٠) أيلة: بالفتح، مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام. ياقوت: معجم البلدان،٢٩٢/١.

عند المناطق الحجازية[٦١]، وقد ذكر ياقوت في حديثة عن الشعيبة[٦٢] أنها تقع على بحر الحجاز، وهي كما هو معلوم لا تبعد عن مدينة جدة بالشي الكثير، وتعد من مدن الحجاز، ولكنه ذكر خلاف ذلك عن مدينة جدة إذ قال أنها على ساحل بحر اليمن فلعله سهى في ذلك ولم يقصد بحر اليمن إنما بحر الحجاز، أو بحر جدة مثلما ذكر ذلك ابن الفقيه في كتابه البلدان، ووافقه البكري بقوله: "بحر جدة"[٦٣]، ونعته ابن جبير ببحر فرعون[٦٤].

ولموقع مدينة جدة أهمية استراتيجية إذ اعتبرت فرضة[٦٥] وميناء رئيسي لمدينة مكة المكرمة، كما أن موقعها أكسبها أهمية عالمية في المواصلات البحرية والبرية أيضاً والتجارة العالمية. وقد ذكر ياقوت قوله: "وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال، عن الزمخشري، وقال الحازمي: "بينها يوم وليلة، وهي في الإقليم الثاني، طولها من جهة المغرب أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة.. قال أبو زيد البلخي: وبين جدة وعدن نحو شهر، وبينها وبين ساحل الجحفة خمس مراحل"[٦٦].

وعند تحليل هذا النص الذي أورده ياقوت للموقع الجغرافي للمدينة نجد أنها تقع على ساحل البحر فهي مدينة ساحلية، وهو ما أكده عدد من البلدانيين والرحالة المسلمين، فنجد اليعقوبي يقول: "وجدة هي ساحل البحر"[٦٧]. بينما ذكر المقدسي: "جدة مدينة على البحر"[٦٨]، في حين يذكر ابن جبير أنها: "قرية على ساحل البحر"[٦٩]، ووافقه ابن بطوطة

(٦١) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص:٢٣٠، ابن الفقيه: كتاب البلدان،١٣٠، الهمداني: صفة جزيرة العربية، ٧، ياقوت: معجم البلدان، ٣٨٧/٤.
(٦٢) الشعيبة: ميناء ومرفأ تاريخي قديم على شاطي البحر الأحمر، وهو مرفأ أهل مكة قبل ميناء جدة. ياقوت: معجم البلدان، ٣٥١/٣.
(٦٣) ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص:١٣٠، البكري: معجم ما استعجم، ١٦/١.
(٦٤) ابن جبير: رحلة ابن جبيره، ص:٥٩.
(٦٥) فرضة: الفرضة، بضم الفاء مصدر الشيء وأصله، فيقال فرضة البحر: أي محط السفن منه، وفرضة النهر مكان استقاء الماء منه. ابن منظور: لسان العرب، ٢٠٦/٧.
(٦٦) ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١٣٣.
(٦٧) اليعقوبي: كتاب البلدان، ١٥٤
(٦٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.
(٦٩) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٢.

بقوله: "بلدة قديمة على ساحل البحر"[٧٠]، وهو ما أقره ابن حوقل قبل ذلك بقوله: "على شط البحر"[٧١].

وبالنسبة لقدر المسافة بين مدينة جدة ومكة المكرمة عند ياقوت، فقد نقل عن الزمخشري قوله: "بينها وبين مكة ثلاث ليال"[٧٢]، وعن الحازمي: "بينهما يوم وليلة"، وبالمقارنة مع الإصطخري في كتابه المسالك والممالك قوله: "جدة فرضة أهل مكة على مرحلتين منها"[٧٣]. وتقدَّر المرحلة بيوم سيراً على الأقدام، فإذا كانت جدة تبعد عن مكة بمرحلتين فتقدر بيومين تقريباً[٧٤]. وهو قريب مما قاله الحازمي أن المسافة بينهما يوم وليلة فقد تكون يومين سيراً على الأقدام، ويوم وليلة على الدواب. وهي اليوم تساوي خمس وسبعون كيلو متراً[٧٥]. أما موقع المدينة بالنسبة لدرجات الطول والعرض فهو: "طولها من جهة المغرب أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة، أما موقعها بين درجات الطول والعرض فهي في الإقليم الثاني من أقاليم الأرض السبعة[٧٦]. إنَّ هذا الوصف الدقيق لموقع المدينة الذي جاء في معجم البلدان يقترب مع ما جاء في العصر الحديث حيث قدر موقعها بين درجات الطول والعرض سنة ١٣٨١هـ، وكانت على طول تسعة وثلاثون درجة واثني عشر دقيقة شرقاً، وخط عرض واحد وعشرين درجة وثلاثين دقيقة شمالاً[٧٧].

والمسافة بين مدينة جدة والمدن والمعالم الأخرى كمدينة عدن التي تبعد عنها مسافة شهر، ومن ساحل الجحفة[٧٨] خمس مراحل، وهو ما جاء أيضاً لدى الإصطخري

(٧٠) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ١٨٦/١.
(٧١) ابن حوقل: صورة الأرض، ٣١/١.
(٧٢) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢.
(٧٣) الاصطخري: المسالك والممالك، ١٩.
(٧٤) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢.
(٧٥) الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة، ١٤/١.
(٧٦) ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١٣٣
(٧٧) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ١٥/١.
(٧٨) الجحفة: قرية كبيرة ميقات أهل مصر والشام، وكان اسمها ميهعة وسمِّيت الجحفة لأنَّ السيل اجتحفها. ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١١١

الذي قال أنه: من عدن إلى جدة نحو شهر ومن جدة إلى ساحل الجحفة نحو خمس مراحل(٧٩).

والطبيعة الطيبوغرافية للمدينة هي الأرض الرملية الساحلية، إذ ليس بها مرتفعات ويغلب عليها الطبيعة الصحراوية، وتفتقر إلى وجود غطاء نباتي أو زرع(٨٠)، وقد وصفتها كثير من المصادر بقلة الماء وندرته مثل المقدسي الذي ذكر أن أهلها: "في تعب من الماء مع أن فيها بركاً كثيرة ويحمل إليها الماء من بعد"(٨١).

وابن بطوطة الذي وصفها عند زيارتها بقوله: "وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت"(٨٢).

وساحلها ممتلئ بالشعاب الصخرية يتخللها شعب مرجانية(٨٣)، وقد وصفه ابن جبير يقوله: ودخول هذه المراسي صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها(٨٤).

ومناخ المدينة حار رطب صيفًا بحكم موقعها على ساحل البحر، وموقعها بين درجات الطول والعرض في منطقة منخفضة ساحلية، لذا نجد مناخها حار رطب صيفًا(٨٥).

وهو ما أثبته المقدسي بقوله: " شديدة الحر جدا". وابن جبير إذ قال: "لها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر"(٨٦).

أما بقية فصول السنة فهي معتدلة بناء على ما جاء في نص أورده ياقوت في معجمه عن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قوله: "أغبط الناس عيشاً! عبدي أو

(٧٩) الإصطخري: المسالك والممالك، ٢٧
(٨٠) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ١٥/١.
(٨١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.
(٨٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ١٨٦/١.
(٨٣) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ١/ ١٥.
(٨٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٢.
(٨٥) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ١٦/١.
(٨٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.

قال مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز، ويتربع بجدة، ويتقيظ الطائف، ويشتو بمكة[٨٧].

ثالثا: مدينة جدة في العصر الإسلامي من خلال معجم البلدان لياقوت الحموي:

"برزت أهمية مدينة جدة كميناء ومرفأ أساسي لمدن الحجاز ومن ثم ميناءً تجارياً عالمياً في العصر الإسلامي، وتحديداً في عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة (٢٦هـ/٦٤٦م)، حينما طلب منه أهل مكة تحويل الساحل إلى جدة بدل الشعيبة وهو ما نص به ياقوت عند حديثه عن ميناء الشعيبة[٨٨] بقوله: "هو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة"[٨٩]. ولا يعني هذا أن مدينة جدة لم تكن ميناء لمكة خاصة وللحجاز عامة قبل عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ وردت إشارات كثيرة في مصادر السيرة النبوية[٩٠] تشير إلى استخدام المسلمين لميناء جدة، بالإضافة إلى ميناء الشعيبة، بل إنها كانت ميناء لمكة قبل ميناء الشعيبة، ثم أعيد جعلها ميناءً وحيداً لمكة المكرمة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه[٩١].

وقد استمرت جدة في أهميتها كميناء رئيسي للحجاز في العصرين الأموي والعباسي إذ لدينا نصان أتى بهما ياقوت في معجمه يدلان على ذلك أحدهما هو: "فلما كان عبد الملك بن مروان زاد ارتفاع حائط المسجد وحمل إليه السواري من مصر في البحر إلى جدة، واحتملت من جدة على العجل إلى مكة"[٩٢]. هذا ما ذكره ياقوت عن الدور الذي قدمته مدينة جدة كميناء رئيس في العصر الأموي ولكنه ذكر أن السواري التي حملت إلى ميناء جدة لتجديد عمارة المسجد الحرام كانت في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (ت٨٦هـ/ ٧٠٥م) بينما نجد جميع المصادر الأخرى خاصة المكية منها تذكر أن أول من حمل

(٨٧) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٢.
(٨٨) الفاكهي: محمد بن إسحاق، (ت بعد ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ط ٣، دار خضر، بيروت، ١٩٩٨م، ٣/ ٢٣١.
(٨٩) ياقوت: معجم البلدان، ٣٥١/٣.
(٩٠) انظر على سبيل المثال: ابن هشام: السيرة السنوية، ١٩٣/١، ٤١٧/٢.
(٩١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤١٧/٢، الفاكهي: أخبار مكة، ٢٣١/٣، ياقوت: معجم البلدان، ٣٥١/٣، الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ٥٨/١
(٩٢) ياقوت: معجم البلدان، ١٤٦/٥، الفاكهي: أخبار مكة، ١٦١/٢.

السواري إلى المسجد الحرام من مصر والشام ومن ثم إلى جدة ومنها إلى مكة هو الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (٩٦ه/ ٧١٥م) [٩٣]، وبالرغم من أن هذه المصادر كانت من أولويات الكتب التي رجع إليها ياقوت وصرح بأسماء مؤلفيها في معجمه كالفاكهي في كتابه عن أخبار مكة، والأزرقي أيضاً وكتابه أخبار مكة[٩٤] إلا أننا لا نعلم لما ذكر اسم الخليفة عبدالملك واستبدله بالخليفة الوليد.

أما بالنسبة للنص الثاني الذي أورد فيه ياقوت أن مدينة جدة كانت ميناءً رئيسياً لمكة في العصر العباسي هو: "أعمدة رخام حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة"[٩٥]. وذلك عند حديثه عن المسجد الحرام وهو ما ذكره أيضاً المقدسي بقوله: "أعمدة الرخام حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة"[٩٦]. وهذا ما ورد أيضاً لدى كل من الفاكهي والأزرقي اذ ذكر الأزرقي ما نصه: "فأمر المهدي بأساطين الرخام، فنقلت في السفن من الشام حتى أنزلت جدة، ثم جرت على العجل من جدة إلى مكة"[٩٧]. أما الفاكهي فقال: "وأرسل إلى مصر وإلى الشام، فنقلت له أساطين الرخام في السفن حتى أنزلت بجدة، ثم نقلت على العجل من جدة إلى مكة"[٩٨]. وقد استمرت مدينة جدة بأهميتها وتميز موقعها الاستراتيجي ميناءً عالمياً طوال العصر الإسلامي فهي ملتقى الطرق البرية والبحرية المهمة، وهو ما أورده ياقوت في حديثه عن طرق القوافل وتحديداً طريق سواحل عمان إلى مكة بقوله: "إنما طريقهم في البحر إلى جدة فإن سلكوا على السواحل من مهرة وحضرموت إلى عدن"[٩٩].

(٩٣) الأزرقي محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ط:٨، دار الثقافة ،مكه، ١٩٩٦م، ٧١/٢.
(٩٤) ياقوت: معجم البلدان، ٣٥٥/١، ٣٥٩/١، ٤٤٥/٢.
(٩٥) ياقوت: معجم البلدان، ٤٦٤/٤.
(٩٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.
(٩٧) الأزرقي: أخبار مكة، ٧٦/٢.
(٩٨) الفاكهي: أخبار مكة، ٢/١٧٢.
(٩٩) ياقوت: معجم البلدان، ١٨٨/٥.

وهو الطريق الذي وصفه ابن خرداذبة من قبل بقوله: "الطريق من عمان إلى مكة على الساحل من عمان إلى عرق.. ثم إلى الساحل.. ثم إلى منزل، ثم إلى جدة، ثم إلى مكة"(١٠٠).

أما بالنسبة للطريق البحري من مصر إلى مكة المعروف فهو من مصر إلى ميناء عيذاب ثم إلى الجار ثم إلى جدة ومنها إلى مكة، وقد أشار إليه عدد من الرحالة في رحلات مجيئهم لأداء فريضة الحج كالمقدسي الذي نعته بقوله: "ومن القلزم إلى جدة في البحر من خمسة وعشرين يوماً إلى ستين على قدر الريح وهي ثلاثمائة فرسخ"(١٠١)، وهو الطريق الذي وصفه ابن جبير عند انطلاقه من ميناء عيذاب إلى جدة عن طريق البحر

ووصف أهواله بقوله: "وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة"(١٠٢).

أما ابن بطوطة فقد ذكر أنه "ركبت البحر من عيذاب إلى جدة، ومنها إلى مكة"(١٠٣).

ومع مرور الوقت تنامت أهمية مدينة جدة كميناء رئيس للقوافل القادمة والذاهبة سواء قوافل الحجاج إذ أصبح الطريق من جدة إلى مكة والعكس هو الطريق الرئيس الوحيد الذي ينقل قوافل الحج والتجارة القادمة من جهة البحر الأحمر إلى مكة المكرمة فحجاج بلاد الأندلس والمغرب ومصر والهند وبعض حجاج اليمن يصلون إلى جدة بحرًا(١٠٤)، وحتى جنوب أفريقيا كانوا يقطعون رحلتهم إلى مدينة سواكن ومنها بحراً إلى جدة. أو القوافل التجارية التي جعلت من هذه المدينة مركز ا للتجارة العالمي في العصر الإسلامي، بموقعها في منتصف الساحل الغربي للجزيرة العربية على البحر الأحمر، الذي يفصل آسيا عن أفريقيا والمتصل بالبحر المتوسط المطل على الموانئ العالمية.

(١٠٠) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ١٩٣
(١٠١) المقدسي: أحسن التقسيم، ٧٩.
(١٠٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٤٨.
(١٠٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ٥٠٦/٢.
(١٠٤) محمد الشريف: الملاحة في البحر الأحمر (الساحل الحجازي) حتى نهاية العهد المملوكي دراسة تاريخية http://m-alshareef bilegspot. Com، إيناس: عماد وجنان فليح: الموانئ التجارية المطلة على ساحل البحر الأحمر في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة مجلة الجامعة العراقية، ع ٥٤، ٢٤٨/١- ٢٤٩.

به كجنوة والبندقية وغيرها، وبحر العرب والمحيط الهندي كل ذلك كان له دوره الكبير في أن تقفز مدينة جدة إلى مصاف المراكز العالمية في التجارة بين الشرق والغرب فكان مرفأها يعج بالبضائع المختلفة من المنسوجات والأقمشة والتوابل والحبوب والصناعات القديمة المختلفة، إضافة إلى نقل معدات البناء والأخشاب والمواد الخام التي كانت تصل إلى جدة لتعمير الحرمين الشريفين مثلما ذكرنا سابقاً(١٠٥).

وعلى الرغم من أن ياقوت لم يورد تفصيلاً عن أهمية مدينة جدة كميناء تجاري في العصر الإسلامي وعن مدى المستوى الذي وصلت له كمركز للتجارة آنذاك..
إلا أننا نستأنس بما أورده الجغرافيين والرحالة المسلمين من قبله كالإصطخري الذي يصف المدينة بقوله: "عامرة كثيرة التجارات والأموال ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها"(١٠٦). ويذكر المقدسي بأنها: "هي خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر"(١٠٧)، ويذكر في موضع آخر: "محصنة عامرة أهلها أهل تجارات ويسار"(١٠٨).

وقد أشار السيرافي أن تجار سيراف كانوا يفرغون بضائعهم في ميناء جدة على البحر الأحمر، فتحمل بعد ذلك إلى مصر، وعلل ذلك بقوله: ومراكب سيراف إذا وصلت في هذا البحر المتيامن عن بحر الهند فصارت إلى جدة أقامت بها ونقلت ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم، إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبة وكثرة جباله النابتة فيه(١٠٩).

ولكم كان ارتباط مدينة جدة بمكة المكرمة قوي جداً، وهذا ما صرح به ياقوت في مطلع حديثه عنها إذ وصفها بأنها: "هي فرضة مكة"(١١٠). وذكر في موضع آخر أن عمرو بن لحي الخزاعي كان مستحوذاً على مكة وما حولها، وقد اتجه إلى مدينة جدة

(١٠٥) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ٢٧٥/١، مها اليزيدي: طريق مكة المكرمة جدة دراسة تاريخية حضارية، مجلة الدارة السنة ٤٦، ع ٤، ١٤٤١ه.
(١٠٦) الاصطخري: المسالك والممالك، ١٩.
(١٠٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩.
(١٠٨) نفس المصدر والصفحة.
(١٠٩) السيرافي: حسن بن زيد، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م، ٨٩.
(١١٠) ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١٣٣.

وأخذ في مسح آثارها للبحث عن الأصنام التي جاء بها فيما بعد إلى مكة[١١١]، ولو لم يكن له هذا الاستحواذ والسيادة على مدينة جدة بالإضافة إلى مكة لما سهل عليه الذهاب إليها والبحث في ساحلها دون طلب إذن من أهلها.

ومما يتصل بهذا الارتباط الإداري بين المدينتين ما ذكره ياقوت أيضًا بقوله: كان معاوية يقول: "أغبط الناس عيشاً عبدي أو قال مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز ويتربع جدة، ويتقيظ الطائف، ويشتو بمكة"[١١٢]. فهذا عامل الخليفة على أمواله بالحجاز بمعنى أنه مسؤول عن أمواله بالحجاز، وتحديداً مكة وجدة والتي تبين من التتبع التاريخي لها أنها تشكل ولاية واحدة مع احتمال تغيير المسمى في كل عصر[١١٣] وهذا ما صرح به ابن جبير في رحلته بقوله: "وكان نزولنا بها بدار القائد علي وهو صاحب جدة من قبل أمير مكة"[١١٤].

أما ابن بطوطة فقد ذكر أن قاضي جدة وخطيبها في ذلك العصر هو الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب[١١٥]، وقبل ذلك أورد الرحالة ناصر خسرو أن أمير جدة عند زيارته لها كان تابعاً لأمير مكة وذلك سنة (٤٤٢هـ/١٠٥١م)[١١٦].

إضافة إلى ذلك فقد كانت مدينة جدة مثلما ذكرنا سلفاً مرفأ وميناءً لكل ما يحمل من مواد بناء لعمارة الحرمين الشريفين وخاصة المسجد الحرام منذ الجاهلية إذ يذكر ابن هشام عند حديثه عن بناء قريش للكعبة أن: "البحر رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم، فتحطمت فأخذوا خشبها، فأعدوه لتسقيفها"[١١٧].

ثم استعين بمينائها بعد ذلك لاستقبال وإيصال كل ما يلزم لعمارة المسجد الحرام خلال العصرين الأموي والعباسي مثلما ذكر ياقوت[١١٨]، وفي العصر المملوكي أيضاً

(١١١) نفس المصدر، ٥/ ٤٣٨.
(١١٢) نفسه، ١٢/٤.
(١١٣) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ص١٠٣.
(١١٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٢
(١١٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ٨٦/١.
(١١٦) ناصر خسرو :سفر نامه،١٢٠
(١١٧) ابن هشام: السيرة النبوية، ١٩٣/١.
(١١٨) ياقوت: معجم البلدان، ٤/ ٤٦٤، ٥/ ١٤٦.

وهو ما أشار إليه الرحالة ابن بطوطة بقوله: "أن الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الإنشاء برسم المسجد الحرام فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجتاز إلى بحر جدة ثم إلى مكة شرفها الله"(١١٩).

وبما أن مدينة جدة كانت تستقبل كل أنواع الخيرات والتجارات من مواد غذائية، وملابس، وعطور، وحلي وأنواع الدواب والمواشي، وغيرها الكثير من البضائع والسلع من أصقاع العالم، وكانت هذه الحمولات الهائلة تشحن في المقام الأول إلى مدينة مكة المكرمة لا سيما مع وجود الحجاج القادمين من شتى أرجاء المعمورة إلى ميناء جدة وقد حملوا معهم مختلف البضائع والسلع على اختلاف بلدانهم، فكانت مكة المكرمة، هي السوق المروجة للبضائع القادمة لميناء جدة(١٢٠).

ولم يغب الارتباط الديني بين المدينتين منذ القدم إذ ذكر ياقوت نصوصاً تعطي تصوراً عميقاً على أن مدينة جدة قد لعبت دوراً كبيراً في الناحية الدينية بالنسبة لمدينة مكة المكرمة أولاها هو: "أن الأصنام ود وسواع ويغوث أخذها الطوفان ... حتى قذفها إلى أرض جدة ثم نضب الماء وبقيت على شط جدة"(١٢١).

وثانيهما هو ما أورده ياقوت عن ابن هشام قوله: "كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أصنام قوم نوح وقوم إدريس، عليها السلام، وانتقلت إلى عمرو بن لحي، وكان عمرو بن لحي.. قد غلب على مكة وأخرج منها جرهما وتولى سدانتها وكان كاهناً، فأتى شط جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه العرب.. فقيل عمرو بن لحي أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان"(١٢٢).

وذكر في موضع ثالث ما نصه: "كان لمالك وملكان ابني كنانة بساحل جدة وبتلك الناحية صنم يقال له سعد، وكان صخرة طويلة"(١٢٣)، ومن خلال هذه النصوص التي

(١١٩) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ٣٦/١.
(١٢٠) اليزيدي: طريق مكة المكرمة جدة، ١٥١.
(١٢١) ياقوت: معجم البلدان، ٣٦٧/٥.
(١٢٢) ياقوت: معجم البلدان، ٤٣٨/٥، ابن هشام: كتاب الأصنام، ط ٤، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ٥٤- ٥٥.
(١٢٣) ياقوت: معجم البلدان، ٢٢١/٣.

ذكرها ياقوت يتبين لنا أن مدينة جدة كانت تابعة لمن يحكم مكة المكرمة ويلي سيادتها، وأن هذه المدينة كانت مستقطب للمسح الأثري ولكنه للأسف لم يستفد منه فيما ينفع، إنما كان سببا للشرك وتحويل الناس عن الدين الخالص ملة إبراهيم عليه السلام، فها هو ذا عمرو بن لحي يغذ السير إلى شاطي جدة الذي كان يخبئ تحت رماله تلك الأصنام من عهد نبي الله نوح عليه السلام، فاستخرجها وقسمها على قبائل العرب فكانت سبباً في انتشار الشرك في جزيرة العرب منذ ذلك الوقت.

وإلى ساحل جدة أيضاً ينسب وجود صنم لابني كنانة مثلما ذكر ياقوت وكان هذا الصنم عبارة عن صخرة كبيرة تعبد من دون الله.

وإذا تعقبنا البنية السكانية لمدينة جدة من خلال معجم البلدان حيث ذكر ياقوت أن أول من سكنها: "ولد جُدة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة"(١٢٤).

أي أن قبيلة قضاعة العربية كانت أول من سكن مدينة جدة، بيد أن المصادر الأخرى تشير إلى أن هذه المدينة منزل حواء أم البشر عليها السلام فهي أول من سكنها(١٢٥)، وتشير أيضاً إلى وجود جاليات فارسية بها بين الحين والآخر(١٢٦)، ويبدوا أنها كانت تستوطنها لغرض التجارة، وقد أشار ياقوت أيضاً إلى وجود صنم لرجلين من بني كنانة هما مالك وملكان(١٢٧)، فلا ندري أكانت مدينة جدة وسواحلها مسكناً لقوم من بني كنانة أم أنه موضع لصنم القبيلة فقط.

وفي القرن الخامس الهجري وتحديداً عند مجيء ابن جبير إلى بلاد الحجاز ذكر عن سكان جدة قوله: "وأكثر سكان هذه البلدة مع ما يلها من الصحراء والجبال أشراف علوىون حسنىون وحسىنىون وجعفريون، رضي الله عن سلفهم الكريم"(١٢٨).

(١٢٤) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢.
(١٢٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٧، ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٢.
(١٢٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩، ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٣، ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ١٨٦/١.
(١٢٧) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٦٣.
(١٢٨) ابن جبير: رحلة ابن جبير،٦٣

وبالجملة فإنَّ مدينة جدة كغيرها من مدن الحجاز كان أغلب سكانها من العرب ومن القبائل الحجازية أيضاً إضافة إلى الجاليات والمهاجرين إليها بين الحين والآخر.

ولشدة الروابط الاجتماعية بين المدينتين مكة وجدة، نجد أن سكان مدينة جدة ينتمون إلى مكة المكرمة أو تربطهم بها روابط أصل ونسب مثلما هو واضح في عدد من العلماء الذين أوردهم ياقوت في معجمه كالعالم والمحدث عبد الملك بن إبراهيم الجدي، ذكر ياقوت أنه أحد علماء جدة(١٢٩) ولكن بالنظر إلى ترجمته في المصادر الأخرى نجد أنه يعود في نسبه إلى مكة فهو عبدالملك بن إبراهيم أبو عبد الله مولى بني عبد الدار القرشي الجدي المكي، يكنى بأبي عبد الله، سمع الحديث وحدث وروى عنه الحجازيون وأهل العراق (ت ٢٠٤ أو ٢٠٥هـ/ ٨١٩ – ٨٢٠)(١٣٠).

ولم تقتصر أهمية مدينة جدة كونها ميناءً تجاريًا في الساحل الغربي للحجاز، فيبدوا أنها شهدت نشاطاً علمياً أيضاً عبر مراكز العلم المعروفة آنذاك كالمساجد وغيرها، فها هو ياقوت يورد في ختام حديثه عنها أهم علمائها والذين لا بد أنهم أدوا رسالتهم العلمية بهذه المدينة كالعالم المحدث سالف الذكر عبد الملك بن إبراهيم الجدي (ت ٢٠٤ أو ٢٠٥هـ/ ٨١٩–٨٢٠م).

وعلي بن محمد بن علي بن الأزهر أبو الحسن العليمي المقرئ القطان المعروف بالجدي (ت ٤٦٨هـ/١٠٧٥م)(١٣١). وكليهما من علماء الحديث الشريف ولابد أنهما درسا الحديث في مدينة جدة، ولم يتحفنا ياقوت بمعلومات مفصلة عن أهم المراكز العلمية ومؤسسات التعليم بها، إلا أن المصادر الأخرى ذكرت أن بمدينة جدة عدد من المساجد فها هو الرحالة ناصر خسرو الذي ذكر بجدة مسجد كان يسمى بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٣٢)، وأورد المقدسي عند حديثه عن المدينة أن بها جامعاً سريًّا(١٣٣). أما

(١٢٩) ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١٣٣.
(١٣٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٦٢٦/١٢، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ط:١، مطبعة دائرة المعارف، ١٣٢٧هـ، ٣٢١/١٢.
(١٣١) ياقوت: معجم البلدان، ١٣٣/٢، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين العمروي، ط:١، دار الفكر، ١٩٩٥م، ١٩٦/٤٣.
(١٣٢) ناصر خسرو: سفر نامة، ١٢٠.
(١٣٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٧٩

الرحالة ابن جبير فقد قال:" فيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١٣٤]، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس[١٣٥] ينسب أيضاً إليه رضي الله عنه، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد رحمة الله عليه[١٣٦]". ولا بد أن هذه المساجد كانت تؤدي دورها التعليمي في التدريس ونشر العلم وذلك قبل نشأة المدارس في بلاد الحجاز.

(١٣٤) وهو مسجد الشافعي اليوم أما نسبة بنائه إلى زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففيها نظر ولعل بنائه يعود إلى زمن الملك المظفر سليمان الأيوبي (ت ٦٤٩هـ/) الأنصاري: موسوعة تاريخ جدة، ٤٢٥.

(١٣٥) مسجد الأبنوس: ينسب بنائه في أصح الروايات إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو مسجد صغير بحارة المظلوم، نفس المرجع، ٢٤٩.

(١٣٦) ابن جبير: رحلة ابن جبير،٦٢.

خاتمة:

أكدت الدراسة أن مدينة جدة كانت ومازالت تتمتع بأهمية تاريخية جغرافية واقتصادية ودينية وسياسة على مر العصور، ومما زاد من أهميتها قربها من مكة المكرمة حيث كانت مرفأها الوحيد في العصر الإسلامي وأكدت أهميتها بالنسبة لمدينة مكة مع استقبالها وفود الحجاج القادمين إلى مينائها من أصقاع المعمورة متجهين إلى مكة لأداء فريضة الحج.

النتائج:

١- يعتبر كتاب معجم البلدان موسوعة تاريخية جغرافية كبيرة لا يستهان به فقد حوى معلومات وافرة عن كثير من المدن والأصقاع وذكر مالم يذكره كتاب آخر عنها.

٢- تعتبر مدينة جدة قديمة موغلة في القدم إذ أرجع البعض تاريخها إلى عهد آدم وحواء عليهما السلام.

٣- حافظت مدينة جدة على مركزها كميناء ومرفأ في غرب الجزيرة العربية بل أنها أصبحت مع مرور الوقت مركزاً عالميًا للتجارة واستقبال الحجاج لبيت الله الحرام.

٤- كانت مدينة جدة تتبع لمكة المكرمة إداريًا في أغلب العصور التاريخية وشملت هذه التبعية جميع جوانب الحياة المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والعلمية.

التوصيات:

تزخر مدينة جدة بالكثير من المكتشفات الأثرية التي يجب الالتفات لها وإجراء مسح أثري على أرضها لمعرفة الكثير عن تاريخها ومن سكنها واستخراج الكثير من الآثار والكنوز المدفونة بها لاسيما وهي مدينة ساحليه ووصف أهلها ومن حل بها أنهم أهل تجارات.

خريطة جدة لابن المجاور في القرن الهجري السابع

المصادر والمراجع

١- ابن بطوطة :محمد بن عبدالله (ت٧٧٩ه_١٣٧٧م) :رحلة ابن بطوطة ، اكاديمية المغرب ،الرباط،١٤١٧ه.

٢- ابن جبير: محمد بن احمد (ت ٦١٤ه – ١٢١٧م) :رحلة ابن جبير، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ،٢٠٠٣م.

٣- ابن حجر: احمد بن علي (ت٨٥٢ه – ١٤٤٩م): تهذيب التهذيب، ط١، مطبعة دائرة المعارف، ١٣٢٧ه.

٤- ابن حوقل: محمد بن حوقل (ت بعد ٣٦٧ه_٩٧٧م)،صورة الأرض،دار صادر،بيروت،١٩٣٨م.

٥- ابن خرداذبه: عبيد الله بن عبد الله (ت نحو ٢٨٠ه_٨٧٠)، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ١٨٨٩م.

٦- ابن خلكان: أحمد بن محمد (ت ٦٨١ه_١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٤٩م.

٧- ابن عساكر (ت٥٧١ه_١١٧٦م): تاريخ مدينة دمشق: دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٨- ابن العماد :عبد الحي بن أحمد (ت١٠٨٩ه_١٦٧٩م) :شذرات الذهب في اخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق،١٩٨٦م.

٩- ابن الفقيه:(ت ٣٦٥ه): كتاب البلدان، ط١، عالم المعرفة، بيروت، ١٤١٦ه.

١٠- ابن منظور :محمد بن مكرم (ت٧١١ه_١٣١١م) :لسان العرب،ط٣،دار صادر ،بيروت،١٤١٤ه.

١١- ابن هشام :عبد الملك بن هشام(ت٢١٨ه_٨٣٣م): السيرة النبوية، ط٢، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٣٨٩ه. وكتاب الأصنام، ط٤، دار الكتاب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٢- الأزرقي: محمد بن عبد الله (ت نحو ٢٥٠ه_٨٦٤م): أخبار مكة وما جاء

١٣- البكري: أبو عبيد (ت ٤٧٨ه_١٠٨٦م): معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواضع ،عالم الكتب ،بيروت،١٤٠٣ه.

١٤- الذهبي: شمس الدين (ت ٧٤٨ه_١٣٤٨م): سير إعلام النبلاء، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

١٥- السيرافي: حسن بن زيد (ت ق ٤ه_١٠م): رحلة السيرافي، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي،١٩٩٩م.

١٦- السيوطي: جلال الدين (ت ٩١١ه_١٥٠٥م): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط١، مطبعة الحلبي، ١٩٦٥م.

١٧- الفاكهي: محمد بن إسحاق (ت بعد ٢٧٢ه_٨٨٥م): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ط٣، دار خضر، بيروت، ١٩٩٨م.

١٨- القفطي: جمال الدين علي (ت ٦٢٤ه_١٢٢٦م): انباه الرواة على انباه النحاة، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٩- المقدسي :أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٠ه_٩٩٠م) :احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ط٢،دار صادر ،بيروت،١٩٠٩م.

٢٠- ناصر خسرو: أبو معين (ت ٤٥٣ه_١٠٦١م): سفر نامه، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.

٢١- الهمداني: أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ه_٩٤٥م): صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨٤م

٢٢- ياقوت: ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ه_١٢٢٩م): معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م. ومعجم الأدباء، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٣- اليعقوبي: أحمد بن إسحاق (ت بعد ٢٩٢ه_٩٠٤م) :كتاب البلدان،ط١،دار الكتب العلمية ،بيروت،١٤٢٢ه.

٢٤- ايناس: عماد وجنان فليح: الموانيء التجارية المطلة على ساحل البحر الأحمر في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة، مجلة الجامعة العراقية، ع ٥٤.

٢٥- كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٦- محمد الشريف: الملاحة في البحر الأحمر الساحل الحجازي حتى نهاية العهد المملوكي دراسة تاريخية،-http://m alshareef bilgspot.com

٢٧- مها اليزيدي: طريق مكة المكرمة جدة دراسة تاريخية حضارية، مجلة الدارة، السنة، ٤٦، ع ٤، ١٤٤١ه.

٢٨- يوسف الحميدي: ياقوت الحموي مؤرخا، ط١، منشورات ضفاف، بيروت، ٢٠١٤م.